مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(غلاطية ٤: ٤–٧)

يا إخوةُ لمَّا حان ملءُ الزمانِ أرسلَ اللهُ ابنه مولوداً من امرأةٍ مولوداً تحت الناموس* ليفتدِيَ الذين تحت الناموس لننالَ التبنّي* وبما أنَّكم أبناءٌ أرسلَ اللهُ روحَ ابنهِ إلى قلوبِكم صارخاً يا أبَّا الآبُ* فلستَ بعدُ عبداً بل أنت ابنٌ. وإذا كنتَ ابناً فأنتَ وارثٌ للهِ بيسوعَ المسيح.

الإنجيل

(متى ٢: ١–١٢)

لمَّا وُلد يسوعُ في بيتَ لحمَ اليهوديةِ في أيام هيرودسَ الملكِ إذا بمجوسٌ قد أقبلوا من المشرِق إلى أورشليم قائلين. أين المولودُ مَلِكُ اليهود. فإنَّا رأينا نجمه في المشرِق فوافَيْنا لنسجد له*

صار الإله إنساناً

في هذا اليوم نعيِّد لحدثٍ عظيم غيَّر مجرى التاريخ البشري وهو عيد ميلاد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح بالجسد. إنّ تجسّد المسيح كان عملاً إستثنائياً في حياة البشر على الأرض، إذ من خلاله حقّق الإله ما لم يستطع الإنسان أن يحقّقه، أي اتّحاد الطبيعتين البشرية والإلهية.

نقرأ في سِفر التكوين أن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله (تك ١: ٢٦)، فهو أراد أن يتّحد الإنسان به لذلك خلقه على صورته ودعاه للتمثّل به، وهذا كان الهدف الأسمى لحياة الإنسان. بيد أن الإنسان انخدع بغواية الحيّة التي كانت أكثر حيوانات البرية حيلة (تك ٣: ١) والتي استغلّت كبرياء الإنسان، فاختار آدم وحواء بملء حرّيتهما معصية الله. نحن نعرف كلمات الرب يسوع: «إنْ أحبَّني أحدٌ يحفَظْ كلامي، ويحبُّه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنعُ منزلاً» (يو ١٤: ٢٣). من هنا نفهم أن الإنسان الأول لم يكن يحبّ الرب محبَّة كاملة وإلاّ لما خالف وصيّته الوحيدة، لذا أدّى نقص المحبّة إلى الانفصال عن المحبوب.

من أبرز نتائج السقوط موت الإنسان (تك ٢: ١٧). لقد ابتعدنا عن الله مصدر الحياة وفقدنا إمكانية معرفته لأن صورة الله المخلوقة فينا، والتي تسمح لنا بالدخول في شركة معه، تشوهت بسبب خطايانا. هكذا لم يعد الإنسان يستطيع أن يحقّق الغاية من وجوده، أي الاتحاد بالله بعيداً عن نعمة الله. لهذا تدخّل الله بصلاحه ليصلح ما أفسده الإنسان كما يقول القديس أثناسيوس الكبير: «فلأجل قضيّتنا تجسّد كي يخلّصنا، وبسبب محبّته للبشر قَبِل أن يتأنّس ويظهر في جسدٍ بشري».

العدد ٢٠١١/٥٢

الأحد ٢٥ كانون الأول

ميلاد ربنا وإلهنا ومخلّصنا

يسوع المسيح بالجسد

لكن يبقى سؤالٌ يطرحه كثيرون: «لماذا لم يخلّص الله البشرية بإصدار أمر منه دون أن يتّخذ كلمته جسداً؟» في البدء لم يكن أي شيء موجوداً، فخلق الله العالم بكلمته من العدم. أما بعد أن أصبح الإنسان كائناً موجوداً وحرًّا، استدعت الضرورة علاج ما هو موجود، فكان لا بد من تجسّد الكلمة البريء من الفساد ليصلح طبيعتنا المفسودة بالخطيئة ويقدّم لنا إمكانية الاتّحاد بالله من

فلمَّا سمع هيرودُس الملكُ اضطرب هو وكلُّ أورشليم معه* وجمع كلَّ رؤساءِ الكهنة وكَتبة الشعبِ واستخبرهم أين يولَد المسيح* فقالوا له في بيتَ لحمَ اليهودية. لأنَّه هكذا قد كُتب بالنبي: وأنت يا بيتَ لحم أرضُ يهوذا لستِ بصُغرى في رؤساءِ يهوذا لأنَّه منكِ يخرج المدبّر الذي يرعى شعبي إسرائيل* حينئذٍ دعا هيرودس المجوسَ سِرًّا وتحقَّق منهم زمانَ النجم الذي ظهر* ثمَّ أرسلهم إلى بيتَ لحم قائلاً: انطلقوا وابحثوا عن الصبي بتدقيقٍ ومتى وجدتموهُ فأخبروني لكي آتيَ أنا أيضاً وأسجدَ له* فلمَّا سمِعوا من الملك ذهبوا فإذا النجمُ الذي كانوا رأوهُ في المشرِق يتقدَّمهم متى جاء ووقف فوق الموضعِ الذي كان فيه الصبيُّ* فلمَّا رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جدًّا وأتَوا إلى البيت فوجدوا الصبيَّ مع مريمَ أمّهِ فخرُّوا ساجدين له وفتحوا كنوزَهم وقدَّموا له هدايا من ذهبٍ ولُبانٍ ومُرٍّ* ثمَّ

جديد في الإبن المتجسّد.

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «في العرس لا تمضي الفتاة إلى ملاقاة خطيبها، بل هو الذي يأتي لملاقاتها، حتى لو كان هو ابن الملك وكانت هي من العامّة ومن أصل وضيع. هذا ما يجري هنا، الطبيعة البشرية لم تصعد هي إلى السماء بل المسيح هو الذي نزل نحو هذه الطبيعة الوضيعة. بيد أنه لم يسمح لها بالبقاء هنا طويلاً حالما احتُفل بالعرس، بل أخذها معه واقتادها إلى البيت الأبويّ».

الوضع الجديد الذي نتج عن تجسّد ابن الله هو أعظم حتى من الوضع الذي كان عليه آدم في الفردوس. عند الخلق وضع الله آدم في الفردوس، أما الآن فقط أصبحت طبيعتنا بفعل تجسّد الكلمة وعمله الخلاصي جالسة عن يمين الآب على العرش السماوي. «بالحقيقة إنه لأمر عظيم وعجيب أن جسدنا يجلس في السماء ويتقبّل سجوداً من الملائكة ورؤساء الملائكة والشيروبيم والسيرافيم» (القديس يوحنا الذهبي الفم). أما مَن يلبس المسيح في المعمودية فيرفعه الله إلى مرتبة البنوّة، متبنّياً إياه بيسوع المسيح: «لما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس، لننال التبنّي» (غلا ٤: ٤–٥).

يقول القديس أثناسيوس الكبير (٢٩٥–٣٧٣): «لقد صار الإله إنساناً ليصير الإنسان إلهاً». لكن ماذا أستفيد أنا إن صار الإله إنساناً وأنا لم أعرفه؟ لقد صار الإله إنساناً حقاً ليعطينا إمكانيةَ أن نصبح نحن آلهةً بالنعمة، فماذا نستفيد إن بقي هذا الحدث مجهولاً منا؟ كلنا يعرف أن المسيح تجسّد، لذلك عندما نقول أن هذا الأمر بقي مجهولاً بالنسبة لنا فهذا يعني أننا لم نختبره في داخلنا. إن معرفة سرّ التجسّد ليست معرفة فكرية، بل معرفة كيانية وجودية، نحياها في كل يوم ولحظة من حياتنا. بالطبع ليس الأمر سهلاً أن نحيا تجسّد ابن الله في حياتنا، لكن يُفترض بنا أن نحاول ونجاهد روحياً ليولد المسيح فينا، بل بالأحرى لتبقى ولادتُنا في المسيح، التي حصلت عندما نلنا سرّ المعمودية، في تجدّد دائم. فلنسعَ في كل أوان أن نخلع الإنسان العتيق مع أعماله، ونلبس الإنسان الجديد الذي يتجدّد للمعرفة على صورة خالقه (كول ٣: ٩–١٠)، حتى نستطيع أن نشارك في كل عمل المسيح الخلاصي ونؤهّل بنعمة الله لتحقيق دعوتنا المقدّسة، أي المشاركة في حياته الإلهية.

أن نعرف خالقنا

«الثور يعرفُ قانيَهُ والحمارُ معلفَ صاحِبِهُ، أمَّا إسرائيلُ فلا يعرف. شعبي لا يفهم» (إش ١: ٣). هذا ما قاله الرب على لسان نبيِّه إشعياء في بداية سِفرِهِ، بعدما رأى الرب كيف أنّ البنين الذين ربَّاهم ونشَّأهم عَصَوه (إش ١: ٢).

تذكّرنا هذه الآية بالمشهد الأيقوني الذي نراه عند نظرنا أيقونة ميلاد ربّنا، حيث الثورُ والحمار يجلسان إلى جانب المذود جلسةَ خضوعٍ، ناظِرَين وعارِفَين خالِق الكونِ وكل ما فيه، الملفوف بالأقمطة كالأكفان والذي سيُسلِمه أبناء جنسه للصَّلب والموت.

تكثُرُ الكتابات والعِظات والتأمُّلات في الفترة المهيِّئة لميلاد

أُوحي إليهم في الحلم أن لا يـرجِـعـوا إلى هيرودسَ فانصرفوا في طريقٍ أخرى إلى بلادهم.

تأمل

اليوم غير المتجسّد يتجسّد، والكلمة يتّحد بالأرض، غير المنظور يُنظر وغير الملموس يُلامس، ومن لا بدء له يبتدئ، وابن الله يصير ابن الإنسان، يسوع المسيح هو أمس واليوم وإلى جيل الأجيال، فليتشكّك اليهود وليسخر اليونانيون. وإذا لم يكونوا رأوه صاعداً إلى السماء. فلا بدّ من أن يروه نازلاً ليدين العالمين. وتلك الساعة آتية لا ريب فيها. أما اليوم فنحتفل بالميلاد الإلهي. المسيح كان قبلاً ودائماً، وهو الكائن الأزلي من الكائن الأزلي، وهو له المجد، فوق كلّ سبب، وقبل كل كلمة لأنّه لا توجد كلمة تسمو على الكلمة الحقيقية. ومن أجلنا تجسّد في ما بعد ليهب لنا الوجود السعيد، الذي ابتعدنا عنه بسبب الخطيئة.

المخلّص، ونصِلُ إلى يوم العيد حيث يتذكّر بعضُنا ما سمع أو قرأ، أمّا بعضُنا الآخر فلا يذكر شيئاً سوى أنّ عليه تحضير المأدبة الميلادية فينغمس في التّحضير ناسياً المعنى الحقيقي للعيد. هذا الأمر يعيدُنا بالذاكرة إلى الأختين مريم ومرتا اللتين تُمثّل كلٌّ منهما بعضاً منّا، إذ إنّ الواحدة كانت مهتمّة بخلاصِها فجلست عند قَدَمَي يسوع تسمع كلامه، أمّا الثانية فكانت مهتمّة ومضطربة في أمورٍ كثيرة ولم تعِ أنّ الحاجة هي إلى واحدٍ (لو ١٠: ٣٨-٤٢).

كم من مرّةٍ نتصرّف مثل أولئك البنين الذين يتحدّث عنهم الرب على لسان إشعياء النبي، الذين عصَوا الرب ولم يُرِد فيما بعد أن يسمع صلواتهم فقال: «أعيادُكم بَغِضَتْها نفسي، صارت عليَّ ثِقلاً، مَلَلْتُ حملَها. فحين تبسُطون أيديكم أستُر عينيَّ عنكم، وإن كثّرتُم الصلاة لا أسمع» (إش ١:١٤-١٥)؟ أم كم من مرّةٍ نترك الرب الذي يأتي لزيارتنا ونذهب لننشغل ونضطرب بأمور كثيرة لا تمتُّ إلى خلاصنا بصِلة مثل مرتا، في حين أنّ واحداً يقدر أن يخلّصنا وهو الرب؟

نحن نتعلّم من كثيرين حولنا كيف نحيا لكي نكون سعداء ونحصل على كل ما نحتاجه على هذه الأرض، لكن هل فكّرنا مرّةً في أن نتشبّه بالثّور والحِمار اللذين عرفا صاحِبَهما وخالِقَهما وجلسا إلى جانبه يتأمّلانه في المذود، أو بمريم التي جلست عند قَدَمي الرب تسمع كلامه؟ ربما يقول كثيرون منّا إنّ السَّير بحسب كلام الرب يمكنه أن يكون صعباً أو مُسبِّباً للآلام والأحزان لأنه يترتّب علينا أن نترك كلّ شيء ونسير وراءه. أَوَلَم يترك الربُّ كلّ شيء وينزل متواضِعاً إلى الأرض ليلحق بالخراف الضّالّة ويعيدَها إلى الحظيرة السماوية وكان ثمن هذا التنازل الإهانة والموت على الصليب من أجل خلاصنا؟ نقرأ في نبوءة ميخا النبي «هوذا الرب يخرج من مكانه وينزل ويمشي على شوامخ الأرض... كلّ هذا من أجل إثم يعقوب ومن أجل خطيئة بيت إسرائيل» (ميخا ١: ٣-٥).

بانحداره إلينا، علّمنا الربُّ أن نكون متواضعين ومحبِّين إلى أقصى الحدود، أي حتى الموت. إلاّ أنّ بعضَنا يحبُّ نفسه فقط حتى الموت. ينتج من هذه المحبة الأنانية عدّة أنواع من الموت أبرزها:

+ موتٌ اجتماعي إذ إن الإنسان المحبّ لذاته يدوس على جميع مَن حوله كي يصل إلى إرضاء أناه فيبقى وحيداً وبعيداً عن الآخرين،

+ وموتٌ جسدي سريع لأن التعب الدائم المبذول في سبيل المال والشهرة لا يوصل إلاّ إلى الموت، وغالبيّة هذه الفئة من البشر تموت فجائياً بسبب الإجهاد فتكون نتيجة السعي إلى الرفاهية موتاً بدلاً من حياة سعيدة،

+ وموتٌ روحيّ إذ إنّ الأنانيّ بمحبّته ذاته يصل إلى حدود تأليه الأنا فلا يعود يرى لا الرب ولا أحداً من أقرانه، فيقع في خطيئة الكبرياء التي كانت سبب سقوط ملاك النور ليصبح ملاك ظلمة، الأمر الذي يوصله إلى الهاوية.

دعونا، في هذا العيد المبارك، نتأمّل في هذا العمل الخلاصي الذي قام به الرب من أجلنا، ونفكر بمن نريد أن نتشبّه: بأولئك البنين العصاة أم بالثور والحمار؟ هل نريد أن تكون ولادة الرب ذكرى نحتفل بها فقط بالمأكل والمشرب أم نشاؤها حقيقةً تتجلّى في حياتنا

هذا هو معنى الاحتفال، ولهذا نعيّد لمجيء الله إلينا لكي نعود نحن إلى الله. لنخلع الإنسان القديم ونلبس الجديد. وكما متنا في آدم سنعيش في المسيح، فلنولد معه ونُصلب، ونُدفن ونُقَم بقيامته. علينا إذاً أن نعود أدراجنا ونتحمّل مشقَّة الطريق العكسيّة التي تقود إلى الخلاص. فكما أنّه من الصالحات جاءت المحزنات، كذلك نعود إلى الصالحات عن طريق المحزنات. لأنّه حيث تكثر الخطيئة تفيض النعمة، فإذا كان المذاق الحلو قد جلب علينا الدينونة فأولى بآلام المسيح أن تكون أشدّ وأعظم في تبريرنا من الدينونة.

فلنعيّد إذاً لا بمهرجانات صاخبة، بل بأسلوب إلهي.

لنعيّد لا بطريقة عالميّة بل بطريقة تفوق العالم، لا بما يخصّنا بل بما يختصّ بإعادة خلقنا.

القديس غريغوريوس اللاهوتي

وتقودنا إلى القيامة؟

وخلق الله الإنسان، وخلقه على صورته

في نهاية الفصل الأول من سفر التكوين يعود الكتاب المقدّس إلى الكلام عن الخلق فيقول: «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذَكراً وأنثى خلقهم» (١: ٢٧). نلاحظ جيداً أنه يوجد اختلاف واضح بين هذه الآية وبين الآية التي سبقتها: «لنصنع الإنسانَ على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء وجميع الأرض وكل الدبابات الدابّة على الأرض» (١: ٢٦). فهل هناك تغير أو رجوع إلى الوراء؟

لا بدّ لنا من نبذ كلّ الطروحات التي تسيء إلى الله عزّ وجلّ، وإلى صفاته الكاملة، والتمسّك بأن الاختلاف هو ظاهر فقط لا يمسُّ عقيدة الخلق كما وردت في التوراة بتاتاً. فنحن نحوز على صورة الله بقوّة الخلق، ونحوز على مثال الله بقوة الإرادة. ويعني ذلك انّ الإنسان يوجد طبيعياً على صورة الله، أمّا التمثّل به والتشبّه بصفاته فلا يتمّ إلاّ بقوّة الإرادة. وهذا معروف فلسفيًّا أيضاً. فإنّنا نملك طبيعيًّا ومبدئيًّا الإرادة كمحرك أساسي للحياة، ولكنَّ العمل بما توحيه الإرادة لا يتمّ إلا بعمل ثابت ودائم.

وهكذا نفهم انّ الله أعطانا القدرة على التشبّه به، وأعطانا في الوقت نفسه القدرة لنقوم نحن بعمل شخصي للتمثّل به. وهكذا نصبح نحن العملة الحقيقيين لهذا التمثّل بالله، فنكسب بذلك الأجر والمكافأة.

نفهم ممّا سبق المعنى البعيد لقول السيّد في الإنجيل «كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ هو كامل» (متى ٥: ٤٨). وكيف نتشبّه بكمال الله؟ نصل إلى ذلك عندما نجسّد قول السيّد الوارد في الإنجيل عن الآب السماوي «الذي يطلع شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥: ٤٥) فإذا أبغضت الشرّ، ونسيت الإساءة، وإذا رحمت إخوتك، وإذا غفرت من كلّ قلبك لعدوّك، فحينئذٍ أنت تشبه الله.

القديس باسيليوس الكبير

ذكرى ختانة الرب

بمناسبة ذكرى ختانة الرب يسوع وعيد القديس باسيليوس الكبير ورأس السنة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الأحد الأول من كانون الثاني ٢٠١٢ في كاتدرائية القديس جاورجيوس. ويستقبل سيادته المهنئين يوم الأحد في ١ كانون الثاني من الساعة ٤ ب.ظ. حتى الساعة ٧ مساء ويوم الإثنين ٢ كانون الثاني من العاشرة والنصف صباحاً حتى الواحدة ومن الرابعة حتى السابعة مساءً.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb